**جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية**

**قسم اللغة والأدب العربي**

**السنة الأولى ماستر**

**المحاضرة العاشرة**

**فن الخطابة**

فنُّ الخطابة نمط من أنماط النثر الفنِّي يعتمد مشافهة الجمهور، ويهدفُ إلى الإقناع والاستمالة والتأثير في نفوس السامعين، وقد وجد العربُ في الخطابة خيرَ وسيلةٍ للحضِّ على القتال، وإثارة الحماس، واجتلاب النفع، واتقاء الشرّ، ومقارعة الظلم، وحقن الدماء؛ ولهذا عنوا بها عناية فائقة، فهي(من مستودعات سرّ البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، وبها يخاطب الخاص والعام.

نشير منذ البداية الى أن ضروباً من الخطابة العربية كالخطابة السياسية والخطابة الجهادية في العصر الوسيط قد اختفت وتلاشى ظلّها؛ لارتفاع منزلة الشعر الذي قام بدور خطير في إذكاء الصراعات، وإثارة الحماس، وشحذ العزائم، على عكس ما كان عليه في العصور السابقة، إذ كانت الاستعانة بالخطابة خير وسيلة للحضِّ على القتال، والترغيب فيه،

لذا يعدّ شعر هذا العصر وثيقة تاريخية مهمة يمكن الاعتماد عليها؛ على أن ذلك ترك تأثيره السلبي في الخطابة بنوعيها: السياسية والجهادية وبهذا بطلت الخطابة السياسية والجهادية وتقوّضت أركانها ومقوماتها، وانعدمت عواملها ومحفزاتها؛ فلم يعد مبرر لوجودها،

وكان من بين الأسباب التي أدّت إلى ضعف الخطابة العربية في هذا العصر عموماً أنه لم تعد للعرب سلائقهم اللغوية المعهودة من بلاغة القول، وحضور البديهة، وقوّة العارضة، وسرعة الخاطر؛ لفساد ألسنتهم، ولعلّ مردّ ذلك إلى انتشار العجمة واستفحال أمرها، بسبب اختلاط العرب بغيرهم من شعوب الأرض؛ فضلاً عن سيطرة الأعاجم - ومعظمهم من الأتراك - على زمام الأمور، ومقاليد الحكم، وكانوا لا يحسنون اللغة، ولا يفهمون غوامضها.

وإذا كانت الخطابة السياسية والجهادية قد بطلت في هذا العصر، ولم يعد لهما أدنى تأثير، فقد ظلت الخطابة الدينية مزدهرة طوال هذا العصر؛ لاحتفاظها بمقوّمات بقائها ونموِّها ونشاطها، ولما تضمّنته من مواعظ كالتحذير من الدنيا، والانسياق وراء مفاتنها، والتذكير بالموت، ووحشة القبر، والاستعداد لليوم الآخر، والتمسك بتقوى الله، مما له أعمق الأثر في النفوس.

وثمّة باعث آخر ساعد على ازدهار الخطابة الدينية هو كثرة الخطباء في هذا العصر الذين شهروا بالوعظ والتذكير، وتزخر كتب التاريخ والتراجم بأسماء طائفة كبيرةٍ منهم، ممن تألّق نجمهم في هذا العصر، وأكثرهم من خطباء الجوامع،

ومن مشاهير الخطباء في هذا العصر: ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري: (ت 688هـ) قاضي الاسكندرية، وخطيبها وفقيهها الفاضل،

ومنهم: تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف قاضي القضاة المعروف بابن بنت الأعز (ت 695هـ)، ومنهم: تقي الدين محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد (ت 702هـ)

ومن مشاهير خطباء هذا العصر أيضاً: محمد بن يوسف الجزري شمس الدين الخطيب (ت 711هـ)، ولي خطابة جامع ابن طولون، وقد أثر عنه أن له ديوان خطب إلاّ أنه لم يصل إلينا شيءٌ من خطبه.

ويعدُّ القاضي جمال الدين الغزاوي المصري (ت 719هـ) أحد الخطباء الذين لا يبارون، قال عنه ابن فضل الله العمري (وخطب ببعض الجوامع وخلب كلّ المسامع، وأعاد العيدان أغصاناً، والأعلام خرصاناً، ما علق بالقلوب أرساناً

ومنهم شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي (ت 725هـ) الذي نعت بقدوة الكتّاب، وشيخ الخطباء،

وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (739هـ) ممن ولي خطابة دمشق، وكان خطيباً لسناً، وعلى الرغم من شهرته الخطابية إلاّ أنه لم يصل إلينا من خطبه شيء.

ومنهم محمد بن عبد اللطيف بن يحيى السبكي (ت 744هـ)، كان خطيباً لا يبارى، وعلى الرغم مما حظي به من شهرة خطابية، فإنه لم يصل إلينا من خطبه سوى قطعة من خطبته المعروفة بالخطبة الفائقة التي ألقاها يوم تدريسه بالمدرسة الركنية بمصر

ومنهم محمد بن علي الحلبي ناصر الدين الخطيب (ت 789هـ) كان يخطب بجامع حلب، وكان – كما يقول ابن حجر - خطيباً بليغاً مفوّهاًوكذلك زكريا بن محمد زين الدين الأنصاري (ت 926هـ)، وكان ممن يجيد الخطابة بالورق، وله ديوان خطب يعرف بالتحفة السنية. ونكتفي بهذا القدر من الخطباء، إذ لا طائل من تعقّب أسمائهم، وهذا القدر كافٍ في الدلالة على إسهام أولئك الخطباء في تطوّر الخطابة العربية والارتقاء بها في هذا العصر، وقدرتهم على الإقناع والتأثير في نفوس السامعين بما يغمر قلوبهم، ويثير مشاعرهم.

**أنواع الخطابة العربية في العصر الوسيط وأغراضها**

إنَّ ما وصل إلينا من خطب هذا العصر قليلة لا تكاد تبل الريق؛ مع كثرة خطباء هذا العصر الذين لا تتناسب شهرتهم الخطابية مع ما وصل إلينا من خطبهم، وهذا يعني أنّ قسماً كبيراً من خطب هذا العصر قد فقد أو ضاع؛ لأسباب تتعلق بطبيعة روايتها أو نقلها.

ومهما يكن من أمرٍ فإن ما وصل إلينا من خطب هذا العصر قلّة قليلة لا تتعدّى أن تكون خطباً دينية، وقسماً منها خطباً اجتماعية، وأول ما نبدأ به من ضروب الخطابة:

**أولاً – الخطابة الدينية:**

الخطابة الدينية تلك التي شرع الإسلام لها وقتاً معلوماً في يوم الجمعة والعيدين، وفرض الاستماع لها، وكانت الأداة المعبِّرة في المناسبات الدينية، وفي كلِّ أمرٍ جامع والمشتملة على المواعظ الوازعة، والذكرى النافعة، المنبّهة للساهي الغافل، الموقظة للاهي الذاهل، العائدة بترقيق القلوب، وكشف ما غشيها من زين الاغترار، والحضّ على الاستعداد لمنزلة القرار

لهذا ظلّت الخطابة الدينية مزدهرة في هذا العصر؛ لما تضمّنته من مواعظ تذكر بالموت واليوم الآخر، والحضّ على العمل الصالح، والتمسك بأهداف الإسلام

إن ما تنطوي عليه خطب هذا العصر من المعاني والموضوعات لا يعدو أن يكون تذكيراً بالموت، وما ينتظر الإنسان من عقاب أو ثواب، أو تخويفاً من وحشة القبر وأهوال يوم القيامة

ومن عادة هذه الخطب أن تلقى في أيام الجمع، والعيدين، والاستسقاء، وفي موسم الحج،

 ومن جيد الخطب خطبة بدر الدين الطيبي (**أيّها الناس اعتدُّوا للرحلة فالسفر بعيد، واشتدُّوا قبل الدخول في الرحلة فالأمر شديد، واعتبروا فالعبر في كلّ يومٍ تزيد، وبادروا بالعمل، وحاذروا مساورة الأجل، فالموت أقرب من حبل الوريد، وانتهزوا الفرصة قبل يوم الوعيد**.

ويقف الخطيب حيران يتساءل عما جرى لهم، وما حلّ بهم: (**أين الأمم الخالية ؟، أين أصحاب الهمم العالية**؟).ويجيب الخطيب على ما ألقاه من أسئلة جواباً مشوباً بلوعة الأسى أن أولئك قد أفنتهم الدهور، وأبلتهم القبور (**صاروا والله عظاماً بالية، تغيّرت منهم المحاسن وزالت، وذهبت عنهم تلك النظارة ومالت، فاتقوا الله واحذروه، وقدّموا بين أيديكم ما تجدوه**).

ومن محاسن الخطب خطبة تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب وهي من خطب الجُمَع: (**ابن آدم أفق لانقضاء مدّتك، فما بقي إلاّ القليل، وأرِقْ عليها دماء مقلتك، فإنّ الدموع لا تشفي الغليل، وابقَ ما بقيَ من يعينك على الأسف فيما سلف والحزن الطويل، وحقّق في نفسك وطويّتك إنّك في الدنيا كعابر سبيل، واشفق على نفسك من حلول منيتك، وما تأهب إلاّ تزوّدت للرحيل، وألصق خدّك بالتراب لأجل خطيئتك كما يفعل الخاضع الذليل، وأخلق بك باكياً على بليّتك، ومن أحقّ منك بالبكاء والعويل، وثق بأنّك إن صدقت الله في سريرتك أعانك الله وأغاثك بكرمه الجزيل**

في هذا النص يحذر الخطيب من الدنيا وزخرفها ومتعها، فالدنيا فانية لا خلود فيها، وأنّ أيامه فيها محدودة، وأنفاسه فيها معدودة، ولن ينفعه شيءٌ إلاّ ما قدّمت يداه.

**ثانياً – الخطابة الاجتماعية (الحفلية):**

يراد بالخطابة الاجتماعية الخطب التي تلقى في المواسم الكبار والمحافل العظام، وفي مجالس الخلفاء والملوك والأمراء، وفي الأندية العامة والخاصة؛ لغرض من الأغراض التي تتعلّق بالحياة الاجتماعية. وإذا كانت هذه الخطب تعبِّر عن الظواهر الاجتماعية وما يتعلّق بأحوال المجتمع فإنِّها لا تقتصر على موضوعٍ واحد، فقد تعددت مضامينها، وتنوّعت أغراضها؛ تبعاً للظروف والمناسبات الداعية إليها، ومن هذه المضامين التي تناولتها:

**(1) خطبة النكاح (الصداق):**

 عرفها العرب منذ عصر الجاهلية، والفكرة العامة في هذه الخطب هو إقناع ذوي الفتاة بمن يرغب في الإصهار إليهم، ومهمة الخطيب في هذه الخطب هو أبراز مزايا الخاطب وفضله؛ وصفاته الخُلقية، وأصبح من سننها أن يطيل الخاطب في خطبته، ويقصّر المخطوب إليه في إجابته، قال الأصمعي (**كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حرمته الإطالة، لتدلّ على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز؛ ليدلّ على الإجابة**)

ومن جيد الخطب خطبة صداق ٍ لشهاب الدين الحلبي (ت 725هـ) أكد فيها أهمية الزواج ودوره في تقريب الأباعد، واتصال النسب، وبقاء النسل، يقول: [ (اقتربت به الأباعد، واتصلت به الأنساب، اتصال العضد بالساعد، وأحيى الله به الأمم، وقد قضى حينهم، وجَمَعَ به بين متفرّقين **(لو ألَّفْتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قلوبِهِم ولكنّ اللهَ ألّفَ بينهم)**

ومن عيون الخطب التي وصلت إلينا من هذا العصر خطبة زين الدين بن الوردي (ت 749هـ) وقد خطب بعض بني النصيبي على بنت عمّه، فقال – بعد أن حمد الله وأثنى عليه – ((**فإنّ أولى ما بادر إليه أولو الأحلام، وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمة متضمّناً، ولفضيلة العاجل والآجل نافعاً نفعاً بيّناً، وهي سنّة النكاح التي عظمت بها المنّة، وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليه يد السنّة، ولاسيّما بنات العمّ التي أرشدت قصّة البتول – عليها السلام – إليها، وحسن أن يتلى لها بطريق الأولى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتِسْكُنُوا إِلَيْهَا**) [ الروم: 21]....))[[1]](#footnote-1)(40).

لقد أكد الخطيب في هذا النص أهمية الزواج؛ لأن الزواج سنة بقوله (النكاح سنّتي ومن رغب عن سنّتي فليس منّي). كما إنه صيانة للمسلم والمسلمة من الوقوع في مصائد الشيطان.

وتمضي الخطبة على هذا النحو من الهدوء النفسي، يقول: (**فإنّ بنات العمّ أجدى بالصحبة وأجدر، وأوفى بالمودّة وأوفر، وأوصى إلى العهد وأصبر، ولاسيّما من حازت كرم الأوائل والأواخر، وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر، وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر، وإذا قال بعلها: كان جدّي، قالت: وجدّي**. فهذه الأسطر تفصح عن الرغبة المتبادلة بين الخاطب والمخطوب إليه، كما تشير إلى حسن الاختيار، وحسن الظنّ بالخاطب، لاسيّما إذا كان من ذوي القربى، فهم أعرف بمزاياه وطبائعه وفضائله.

**(2) خُطبُ الأندية والمواسم:**

 من عادة هذه الخطب أن تلقى في المحافل والأندية؛ لضرورة يتطلبها موقف ما، ومن ذلك خطبة تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي (ت 744هـ) التي ألقاها يوم عُيّن مدرساً بالمدرسة الركنية بمصر، فقال – بعد أن حمد الله وأثنى عليه – (**أما بعد فإنّ غريب الدار، ولو نال مناط الثريا فيكفي أن يقال: غريب، وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ فما له في الراحة منهم نصيب، ولمشقّة الغربة ازدادت رتبة الهجرة في العبادة، ... والغربة كربة ولو كانت بين الأقارب، ومفارقة الأوطان صعبة ولو عن سمّ العقارب.**

ومن جيد خطب الموسم خطبة محمد بن أحمد المطري (ت 741هـ) وقد خطبها بمكة في موسم الحج، ومما جاء فيها: ((**أيها الناس إنّ الله أصدق قائل، وأوثق كفيل، يدلكم إلى خير سبيل، وذلكم في محكم التنزيل على لسان الحبيب والخليل**، فقال تبارك وتعالى: **(وَإذْ بَوَأْنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَان البّيْتِ أَنْ لا تُشْرِك بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتي للطائِفينَ والقائِمينَ والرُّكَّع السُّجُود**

ركّز الخطيب على فريضة حجّ بيت الله الحرام، وإنّ الله قد تكفّل لهذا البيت بأن يؤمّه من يشاء من عباده المسلمين؛ لأداء مناسك الحج، ثم طلب من معشر الحجاج أن يشكروا هذه النعمة التي أفاء الله بها عليهم وأنهى الخطيب خطبته بأن بعث في نفوسهم بريقاً من أمل حين بشرهم بغفران الذنوب، ومحو السيئات.

**ثالثاً - الخطابة الجهادية (الحربية):**

وهذه الخطب تلقى عادةً لإثارة الحماس، وإيقاظ الهمم، والاستعداد في لقاء العدو، وعلى الرغم من كثرة الحروب التي شهدها هذا العصر فإنَّه لم يصل إلينا من خطب هذا اللون إلاّ خطبة واحدة، **هي** خطبة الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن الخليفة العباسي في مصر حيث خطب الناس في التاسع من المحرّم سنة 661هـ وعرّفهم فضل الجهاد وحضُّهم عليه، (**أيها الناس اعلموا أنّ الإمامة فرضٌ من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلاّ باجتماع كلمة العباد.... وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يردّ عنكم ما جرى، فالحرب سجالٌ، والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والآخرة للمؤمنين، جمع الله على التقوى أمركم، وأعزّ بالإيمان نصركم...)).**

بهذه الكلمات المثيرة التي تلهب الحماس، وتثير العواطف استطاع الحاكم بأمر الله أن يحضُّ الناس على الجهاد، ويرغبهم فيه، ويهوِّن عليهم الأعداء الذين نعتهم: بأولياء الشيطان، وأنّهم لا يألون جّهداً في ترويع الناس وسفك الدماء، واستلاب الأموال، ولا سبيل في الخلاص منهم إلاّ باجتماع القلوب، ووحدة الصف

**الدراسة الفنية**

نتعرّف أهمّ الخصائص والسمات التي امتازت بها الخطابة في هذا العصر،

**أوّلاً ـ بناء الخطبة:**

لا تختلف الخطبة - في هذا العصر - عن الخطبة في العصور التي سبقت هذا العصر من حيث طبيعة بنائها، وشدّة إحكامها، وكان من بين الأمور البنائية التي تتعلق بالخطبة:

**(1) المقدمة:**

إنّ ما يتعلق بأجزاء الخطبة هو عناية الخطيب بالمقدمة التي يفتتح بها كلامه، وغايته في ذلك أن يمهِّد لأفكاره، وقد جرت العادة (أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، حتى صار من (أوصاف الخطابة أن تفتح الخطبة بالتحميد والتمجيد....

، ومن جيد المقدمات مقدمة زين الدين بن الوردي في خطبة نكاح: (الحمد لله الذي أطلع في منازل الشرف شمساً مصونة البهاء والضياء، وأبدع لشرف تاجه البديع درّة مكنونة في بحر الحبا والحياء، ومنحه عقد عقدٍ زان به جيد الوجود، .... ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة تجمع الشمل وتشمل الجمع، وتهدي أجمل منظر وأحسن حديث، إلى البصر والسمع، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المرسل بالشريعة المطهرّة والسنة الطولى

**(2) حسن التخلص:**

وإذا فرغ الخطيب من المقدمة دخل إلى موضوعه، وأكثر خطباء هذا العصر يحفلون بالانتقال، وهو ما يطلق عليه بحسن التخلص، وغالباً ما يتلو عبارات التحميد والتمجيد عبارة (أما بعد) ويؤتى بها لفصل الخطاب، وإعداد السامعين إلى ما سيرد بعدها مباشرة

ومن الخطب التي وردت فيها عبارة (أما بعد) خطبة تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي (**أما بعد فإن غريب الدار، ولو نال مناط الثريا فيكفي أن يقال: غريب، وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ، فما له في الراحة منهم نصيب**....)

 وقد يأتي الخطيب بعبارة (أيها الناس) وينطق بهذه العبارة في المجامع الكبار والمحافل العظام؛ لأنها خطاب إلى الناس كافة، ومن ذلك خطبة ناصر الدين بن المنير الاسكندري (**أيها الناس قصُر سعي من كانت خطاه معدودة، وخسر رأي من اتخذ هواه معبوده،** وذاك ناصر من كانت الأيام جنوده، وقلّ حاصل من كانت الحطام موجودة.

**(3) الخاتمة:** هي (آخرُ ما يعيه السمع، ويرتسم في النفس من الخطبة، وبها يدرك الخطيب مراده، والخطب التي وصلت إلينا من هذا العصر قد تعددت أشكالها وتنوّعت أغراضها، تبعاً لاختلاف موضوعات هذه الخطب، ومن أنواع الخواتيم:

 **(أ) الاستشهاد بالقرآن:** نحو ما ختم محمد بن خلف المطري خطبته بقوله تعالى فقابلوا رحمكم الله هذا الحرم بالتبجيل والتعظيم، فقد قال فيه السميع العليم: (**وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِهِ بإلحادِ بظُلمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم)**

 **(ب) الاستغفار:** وربما يُنهي الخطيب خطبته بالاستغفار لنفسه ولصالح المؤمنين على نحو ما جاء في خاتمة خطبة الحاكم بأمر الله (ت 701هـ): (واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين.

**(ج) الدعاء:**لنفسه وللحاضرين، على نحو ما جاء في خاتمة خطبة يوسف بن سلمان النابلسي (جعلنا الله وإياكم ممن ينتهز الفرصة عند إمكانها، ويزجر نفسه عما تزيّنه وسوسة شيطانها.

**ثانياً ـ الأسلوب:**

والأسلوب الخطابي ـ في هذا العصر ـ يجمع بين السهولة والركة؛ لفساد السلائق العربية، وما اعتورها من تشوهات لسانية، فضلاً عن جريهم وراء المحسنات البديعية التي بالغوا في طلبها، فضلاً عن ابتعادها عن الغريب الذي لا يتكرّر في كلام العرب، وإن ورد كلامهم ورد مستهجناً.

**ثالثاً – الموسيقى:**

تظهرُ عناية الخطيب بأسلوبه، وتأنِّيه في إقامة موسيقى عباراته من خلال اختيار الألفاظ وتجانسها فيما بينها تجانساً صوتياً يكسبُها دفقاً إيقاعياً، لهذا شغفَ العرب بموسيقى الألفاظ وجمال وقعها (وما الإعلال والإبدال والإدغام، وعدم جواز الابتداء بالساكن إلاّ مظهرٌ من مظاهر اهتمام العرب المفرط بجعل الكلمة وحدة منسجمة ومن يتأمل خطب هذا العصر يجد أن أكثرها يتوافر لها ضروبٌ من القيم الصوتية المتناغمة التي تزيد النصّ موسيقى وجمالاً، منها:

**1) السجع:**

 والسجع يضفي على النص الذي يرد فيه قيمة موسيقية؛ بوصفه نوعاً من التنغيم، فهو يقوم أصلاً على تماثل إيقاعي في نهاية المقاطع، وتكرارها على نحو منتظم،

 وخطباء هذا العصر يحبّذون السجع ويؤثرونه في خطبهم، ويأتون به تكلّفاً، ونزوع الخطباء إلى هذا الإيقاع المتناغم؛ ومن ذلك قول يوسف بن سلمان النابلسي (ت775هـ) من خطبة له (فيا **أيها الغافل عسى أن يكون قد اقترب أجلك، وقد أوهمك بعده أملك حتّى سوّد الصحائف عملك، كأنّك والله بأجلك قد حلّ، وبأملك قد ودّع فاستقلّ**...)[[2]](#footnote-2)(66).

**2) الجناس:**

والجناس من ضروب القيم الصوتية المتناغمة، فهو مظهرٌ من مظاهر الزخرفة اللفظية يرفدُ النصَّ الذي يردُ فيه بتجانسٍ موسيقي دقيق، بوصفه ضرباً (من ضروب التكرار المؤكد للنّغم من خلال التشابه الكُلِّي أو الجزئي في تركيب الألفاظ

وتظهرُ عنايةُ أكثر الخطباء - في هذا العصر - بالجناس بما يتحقَّق لديهم من دلالاتٍ وإيحاءاتٍ تسهمُ في خَلقٍ أصداءٍ وأنغامٍ إضافية تسعى إلى الاستحواذ على أجزاء النص الذي تردُ فيه

ومن النصوص التي جاءت حافلة بالجناس قول عبد السلام بن أحمد بن غانم الأنصاري (ت 678هـ) من خطبةٍ له (يا **جبريلُ، أكحل بالنوم أجفان من جفانا، فإنا لا نرضى لهوانا من رضي لنفسه هوانا، ولا يفوز بلقانا إلاّ من صرف وجهه تلقانا، فمن كان بالحبّة عَنانا أطلق في ميدان المحبّة عِنانا... ما ضرّه من فرّقه الشوق ألوانا، إذا ما حشر تحت لوانا، ولا ضلَّ من فتنة الوجد أفنانا، إذا ما انتهى إلى فنانا** )

لقد جانس الخطيب بين (ألوانا) التي هي بمعنى اللون، و (لوانا) التي هي بمعنى الراية، وهو من الجناس الناقص، كما جانس (أفنانا) التي جاءت بمعنى ألواناً وضروباً، و(فنانا) التي هي بمعنى الساحة.

**رابعاً- الخيال والصورة:**

لقد استعان الخطباء بالصور البيانية في إثارة الخيال ووصف المشاهد، الحسية، ودقة التصوير كقول زكريا بن محمد الأنصاري في زيادة نهر النيل: (**فتصبح الأرض لجة بيضاء كأنها صرح ممرّد من قوارير**). فهذه الصورة تعبر عن الخير والنماء، فقد نظر إلى الأرض وهي مزهرة معشبة مرتوية بماء النيل فانتزع لها صورة حسية وليدة خياله الخصب

وقول تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب (**وحقّق في نفسك وطويّتك أنّك في الدنيا كعابر سبيل**) فقد شبّه مكوث الإنسان في الدنيا بعابر سبيل في قصر مقامه، وقلّة مكثه.

وقول الحاكم بأمر الله الأول (ت 701هـ) (فشمّروا عن ساق الاجتهاد، في إحياء فرض الجهاد) نرى أن الخطيب حين يريد تصوير الاجتهاد والجهاد فإنه ينتقي لهما صورتين جميلتين هما: صورة التشمير، وصورة الحياة، فقوله (فشمّروا عن ساق الاجتهاد) ليس للاجتهاد ساق على وجه الحقيقة، وإنما جسم الاجتهاد حين شبَّهه بإنسان له ساق، يتيح له أن يشمّر عن ساقه، فالخطيب قد شبّه الاجتهاد بإنسان له ساق على سبيل التخييل؛ حرصاً على التأهب والاستعداد والجد فيه، وفي عبارته الثانية (في إحياء فرض الجهاد) يعبر الخطيب عن فرض الجهاد بالميت وهو تعبير بالكناية، فعبَّر بالكناية عن هذا المعنى حين عمد إلى لازم من لوازمه.

**رابعاً – البديع:**

لقد افتنَّ الأدباء بهذا الفن وأغرقوا في استعماله إغراقاً لا نظير له في أي عصر أدبي سبق هذا العصر، وهذا لا يدعوا إلى الغضّ أو التقليل من القيمة الفنية لنتاجهم الأدبي؛

ومن النصوص التي ورد فيها الطباق قول أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ) من خطبة في بيعة المستعين بالله الخليفة العباسي بمصر (**والله يجعل انتقالهم من أدنى إلى أعلى، ومن يُسرى إلى يمنى، ويحقّ لهم.**.. لقد جمع في هذا النص بين ضدين مختلفين في المعنى (أدنى، أعلى، يُسرى، يمنى)، وبذلك تكون هذه المعطيات المتضادة أضاءت وهجاً دلالياً له علاقات إيقاعية تتناغم مع حركة النفس الداخلية

وأكثر خطباء هذا العصر من الاقتباس؛ وصارت الخطبة التي تخلو من القرآن تعرف بالشوهاء. على نحو ما جاء في خطبة أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ) من خطبة له ((وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يضاعف لهم بحسن نيتهم الأجور، ويلجأون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليهم بقوله **(الّذينَ إنْ مكّنّاهُمْ في الأرض أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوْا الزَّكاةَ وأمَرُوا بالمعروف وَنَهَوْا عنِ المُنْكرِ وللهِ عاقبةُ الأمُور)[**الحجّ: 41]

1. (40) ديوان ابن الوردي: 62. [↑](#footnote-ref-1)
2. (66) مسالك الأبصار: 13/341. [↑](#footnote-ref-2)